أعلام الأدب

# اسخيلوس
## والمسرح اليوناني
### للأستاذ دريني خشبه

وكان للتمثيل موسمان عند اليونانيين . فموسم الشتاء ( الليناية Lenæa ) وذاك هو موسم عصر الخمر عندهم ، وموسم الربيع ( الديونيزيا Dionysia ) حينما كانت تجتمع في أثينا وفود أحلافها[1]

ولم تكن تمثل على المسرح اليوناني إلا كل درامة تنجح أمام هيئة المسابقة ، وكانت المسابقات تعقد ثلاث مرات[2] في السنة بإشراف الحكومة التي كانت تمثلها الهيئة الدينية

وقبل أن ينشأ مسرح ديونيزوس العظيم على منحدر الأكروبوليس الجنوبي الشرقي كان لأثينا مسرح آخر في مكان سوقها وكانت مدرجاته من عروق الخشب ، وقد حدث أن سقطت هذه المدرجات مرة في زاع كبير نشب بين أنصار كل من اسخيلوس وبراتيناس وخوريلوس في الأولمبياد السابع ( ٤٩٩ ق . م ) فقتل خلق كثير من النظارة ، وكان هذا الحادث هو الباعث لبناء مسرح ديونيزوس[3] ، حيث صنعت المدرجات من الحجر على الحدور الراسخ فكانت تتسع لثلاثين ألف متفرج

وكان مكان التمثيل هو الدائرة المنخفضة الوسطى من المسرح وكانت تسمى الرقص أو الأركسترا Orchestra

وفي وسط الرقص كان يقام المحراب الذي يبدل فيه الممثلون ملابسهم وأزياءهم التنكرية ، وقد رؤى أن يكون إلى خلف الرقص حين رفعت أرضه بالخشب لتتناسب مع المدرجات العالية أمامها

ولما كان المسرح في مثل هذا الاتساع الهائل عمد الأثينيون إلى حيل الكياج ليضخموا الممثلين بحيث تراهم الصفوف الخلفية ، فكان هؤلاء يلبسون أخفافاً كباراً لها أعقاب عالية من الخشب ، وثياباً سميكة محشوة ومبطنة ببطائن منتفخة ، وقد يكون للثوب ذيل فضفاض يجره الممثل وراءه

وكانوا يلبسون الأوجه التنكرية الكبيرة التي تلائم المشهد الروائي ، فإذا كان المشهد محزناً ظل الوجه عابساً بادي الألم ، وإذا كان المشهد مضحكاً بدت على الوجه أسارير المرح وقسمات الضحك أو علائم التهزيل

وكما عمدوا إلى ذلك لتضخيم الممثلين فكذلك عمدوا إلى فم الوجه التنكري فنفخوه بحيث يخرج الصوت منه مدوياً يجلجل في أرجاء المسرح فلا تضيع كلمة واحدة على نظارة الصفوف الخلفية

وقد أدى هذا الكياج العجيب إلى بطء الحركة في الرقص بطئاً شديداً لأن تلك الأخفاف الخشبية ذات الأعقاب العالية لا تعمل على السرعة بل تعمل على البطء ، هذا إلى اضطرار الممثل أن يتجه دائماً إلى الوجهة التي يعبر عنها الوجه التنكري الذي يلبسه ، لأنه لا يستطيع تبديل ( تقاطيعه ) حسب ما يقتضيه سياق الحديث[1]

وكانت طبيعة هذا المسرح الضخم الرحيب تقتضي أن يكون الممثل حاذقاً بارعاً ملماً بدقائق فنه خبيراً بتوجيه الصوت الذي كان ينبغي أن يكون دائماً جهورياً عالياً في غير حشرجة ولا تصديع

وقد كان الشعراء أنفسهم — وهم مؤلفو الدرامات — يقومون بتمثيل الأدوار المهمة ويتولون في الوقت نفسه مهمة الاخراج والإشراف الشامل على تمثيل الأدوار الأخرى ... وقد ظل إسخيلوس وسوفوكليس يمثلون أدوارهم حتى اضطرا إلى التخلي عن ذلك حينما ضعف صوت إسخيلوس ورأى سوفوكليس أن يستعمل ممثلا آخر يقوم عنه بهذه المهمة ، ومن هنا نشأ الاحتراف في التمثيل حوالي سنة ٤٥٦ ق . م

وإسخيلوس هو أول من اتخذ ممثلين بدل ممثل واحد يقوم بمعظم الأدوار الهامة في الدرامة . وقيل إن سوفوكليس زاد عدد الممثلين فجعلهم ثلاثة ؛ وقيل إن إسخيلوس هو الذي صنع ذلك وسنّه لمن جاء بعده

وكانت أدوار النساء تسند عادة إلى الصبيان المُرْد ذوي الصوت الناعم الرخيم . وقد مثل سوفوكليس نفسه دور الحسناء

(١) بركليس للأستاذ E. Abbot ص ٢٩٣

(٢) خلاصة الأدب لدرنكووتر ص ١٧٧ (٣) راسكو ص ٤٣

(١) ستوبارت ص ١٧٩

توزيكا[1] فى درامته المفقودة ( نساء غاسلات ) ... ولا ندرى ماذا منع الآغريق من إسناد هذه الأدوار إلى السيدات ، وليس فى المصادر التى بأيدينا ما يلقى النور على ذلك

وقد كان الفنانون يبدون مهارة عجيبة فى صنع الأوجه التنكرية وخاصة لأدوار النساء، وقد حفظ لنا الأثر كثيراً من فن فدياس فى ذلك خصوصاً فى أدوار درامات سوفوكليس

أما الخورس ( المنشدون ) فقد عرفنا أن عددهم فى الدثرامب ( أغانى باخوس[2] ) القديمة كان خمسين . وقيل ثمانين وقيل غير ذلك ، وقد نزل بهم إسخيلوس إلى ثمانية وأربعين لا يظهر منهم فى المشهد الواحد إلا اثنا عشر . وقال ستوبارت بل كان يظهر منهم فى المشهد الواحد خمسة عشر يخرجون من المحراب فى صفوف ثلاثة طولية عدد كل منها خمسة ، ويقودهم رئيسهم صاحب الناى وعلى يمينه ويساره قائدا الصفين الآخرين

وكان أفراد الخورس يُختارون من أمهر الراقصين اليونانيين ، ومن الذين مرنوا على الإنشاد والغناء ، وذلك لما يتطلبه فن الدرامة اليونانية من التوقيع الموسيقى الرشيق الأنيق المنتظم الذى يواثم مجرى التمثيل ويتفق ومشاهد المأساة أو الملهاة

أما ملابس الخورس فكان يؤدى ثمنها الثرى الذى تعهد للشاعر بمصروفات الدرامة ، وكان لكل فرد من المنشدين أربعة ( أطقم ) من الثياب يغيرها حسب اختلاف المشاهد ...

وكان للخورس المقام الأول فى الدرامة القديمة ، فهم الذين يشرحون الحوادث وهم الذين يعطون للنظارة كل فكرة هامة عن الدرامة ، وما الممثل (أو الممثلان أو الثلاثة ) إلا قائد التسلسل أو كما يقول آرسطو (The Protagonist) أى الشخص الذى يقود الحديث ويوجهه[3] . وقد أخذت مهمة الخورس تتضاءل وتقتصر على الشرح الخفيف والأغانى والموسيقى بعد اسخيلوس . ففى درامة المتضرعات Suppliants[4] ترى أن الخورس هم أبطال الرواية ذكوراً وإناثاً ، وأنهم ينشدون من مادتها الثلثين على الأقل ؛ أما الثلث الباقى فهو للحوار ويؤديه الممثلان. فالخورس فى إسخيلوس هم صلب الرواية ، وهم حاضرون أبداً فى الأوركسترا لا يبارحونه ... أما فى سفوكليس ، أو فى درامته فيلوكتيتس[1] Philoctêtês فلا تكاد تحس للخورس تلك الأهمية ؛ بل لا تكاد تحس لهم أهمية مطلقاً ، وهم لا يظهرون فى الأوركسترا إلا بعد أن تقترب المأساة من أوجها ، ولا يكادون ينشدون من مادتها أكثر من السدس . وهذا هو السبب فى سرعة الأداء فى مآسى سوفوكليس وبطئه فى مآسى إسخيلوس ، بل هذا هو السبب الذى أظفر الشاعر الشاب بالشاعر الشيخ كما سنرى فيما بعد .

وقد فقدت أغانى الخورس قيمتها تقريباً فى درامات يوريبيدز واحتلت الموسيقى المكان الأول فيها جميعاً، وقدحدث ذلك التبدل حينما انحط الغناء وتشوف الأثينيون إلى الموسيقى العلوية الرفيعة التى تذكى المشاعر وتحوم بهم فى آفاق شعرية جميلة ، ومن هنا اهتمام يوريبيدز بالأناشيد والمراثى القروية مما سوف نتناوله فى حينه إن شاء الله .

وقبل أن يبدأ التمثيل ، كان لا بد من إعطاء النظارة فكرة عن موضوع الدرامة ، فكان يبرز من المحراب أحد أفراد الخورس أو الممثلين أو الشاعر نفسه ليقدم المقدمة أو ال Prologue وذلك قبل أن يدخل أحد من الخورس ، أما مقدمة الخورس أو ال Episodion فهى ما يقدم به الخورس نفسه قبيل كل مشهد جديد ...

* * *

أما مادة الدرامات اليونانية فقد كان لها مصدران عظيمان : أحدهما خارجى ويشمل مشكلات السياسة ومؤامراتها وكل ما يتعلق بسلامة الدولة ، والآخر داخلى أو أهلى ويشمل الأساطير الدينية التى تحدد العلاقة بين الناس والآلهة أو بين الآلهة والآلهة أو بين الناس والناس فيما يتعلق بتقليد دينى أو فيما له صلة بتلك التقاليد

وفى الدرامات التى تتناول موضوعاً سياسياً لم يكن يسمح للشاعر أن يستهزئ بدولة ما حتى ولو كانت دولة معادية ؛ ولم يكن يسمح له أيضاً بأن يثلب طائفة ما من الطوائف التى يتركب منها الشعب الإغريقى . وقد حدث أن ألف الشاعر فرينيخوس

(١) موراى ص ٢٣٣
(٢) باخوس هو الاسم الرومانى لاله الخمر ديونيزوس
(٣) موراى ص ٢٠٨
(٤) لخصناها لقراء الرسالة سنة ١٩٣٥ وهى لأسخيلوس

(١) هى الدرامة الخالدة التى أعجب بها شاكسبير ونظم هملت على غرارها وسنلخصها للقراء إن شاء الله فى فصولنا عن سوفوكليس

درامة[1] آذى بها الأيونيون ، فثارت الخواطر عليه فى أثينا وانتهى الأمر بمحاكمته والحكم عليه بغرامة فادحة

وقد كان لأبطال الملاحم الهومرية والهسيودية النصيب الأوفى من عناية شعراء الدرام . وكانوا يعنون كذلك عناية فائقة بأبطال الحروب المروعة التى نشبت بينهم وبين الفرس ... تلك الحروب التى خلقت المجد اليونانى وحالت بانتصار اليونانيين دون تبربر أوربا

أما الأساطير التى تعج بها المثيولوجيا اليونانية فقد كانت مادة أساسية للدرامة ... ولا غرو ، فقد عرفنا أن الدثرامب كانت الفجر الصادق لهذا الفن الجميل العظيم ... والدثرامب هى أغانى باخوس ، وهى وإن كانت تنشد باسم هذا الإله المرح الطروب قد أدت إلى المأساة الصارمة الشجية التى تفيض بالألم وتورث الحسرة والأسى

وهنا موضع إشارة إلى رأي طريف جهر به أستاذ عظيم من أساتذة الأدب اليونانى القديم هو العلامة ردجواى ... فقد أنكر هذا الأستاذ أن تكون أغانى باخوس الفياضة بالفرح والمرح والتهريج أصلاً للمأساة ، وزعم أن أصلها إنما هو الأسى والحزن ، والأسى والحزن إنما ينشآن حول الموتى وحول المقابر وفى المحافل الجنائزية التى كانت تقام فى هذه المناسبات ، وما كان يصحبها من إقامة شعائر الموت والطقوس الدينية المختلفة . ودليله على ذلك تلك المشاهد الكثيرة التى تزدحم بها المآسى من مناظر الحزن وإبراز أمارات الأسى وتجصيص القبور فى المناظر التى تقتضى ذلك .

هذا رأى طريف حقاً ... لكنه رأى لم يشر إليه أحد من قدماء اليونان ، لا أفلاطون ولا أرسطو ولا هيرودوتس ولا أحد ممن أرخ لهذا الأدب المسرحى العظيم . بيد أنه لا ينقض هذا الرأى عدم إشارة أحد من هؤلاء إليه . فهو رأى محترم لأنه منطق ولأن الأستاذ قد أردفه برأى آخر فى نشوء الدرامة الكوميدية كاد ينكر به ما تواتر به التاريخ وأجمع عليه العلماء من أمر نشوئها ، فقد زعم أن الكوميدية لم تنشأ عن الدثرامب التى هى أغانى باخوس المخرية المرحة ، بل نشأت فى قرية تدعى Kome اشتهر أهلها بممارسة عبادة المزلا عن تقى وورع بل اندفاعاً مع التيار ... وآية ذلك أنهم لم يكونوا يظهرون إلههم الذى هو ديونيزوس أيضاً ... فى المظهر الذى كان ينبغى له بصفته أحد سادة الأولمب ، بل هم كانوا يظهرونه فى مظهر المخلوق المخمور العربيد الذى يثير مرآه الضحك[1] ويبعث النشوة والابتهاج ، والسخرية أحياناً . فمن اسم هذه القرية اشتقت كلة Komôidia للملهاة ولفظة Kômoi لشعرائها ومنشديها

ومع ما لهذا الرأى من قيمة ووجاهة فهو ما يزال يفتقر إلى إثبات وتدعيم .

* * *

هذا ولم تكن مناظر القتل وسفك الدماء تمثل على المسرح ، بل كان يكتفى بدخول رسول فيفاجئ الممثلين والجوقة بمقتل فلان أو الاعتداء على فلان . وهنا تتغير اتجاهات المأساة ، وتبلغ أوجها بالخطبة الطويلة التى يلقيها هذا الرسول ، لأنه يتناول شرح الاعتداء ووقته ومكانه وكيفيته والقائم به ...الخ . وكانت المأساة فى الغالب تنتهى بهذه الخطبة ، فيظهر إلهه ، خصوصاً فى درامات يوريبيدز ، فيلقى عظة أو عبرة ، ثم يدخل الجوقة إلى المحراب ، وينصرف الجمهور إن لم يكن هناك تحكيم

وعلى ذكر الخطبة التى يلقيها الرسول نذكر أن الدرامة اليونانية لا تشبه بحال من الأحوال الدرامة التى نشهدها اليوم فى مسارحنا ... فدرامتنا تعتمد على الحوار القصير ، أما الدرامة اليونانية فتعمد على الخطب الطوال فى أكثر الأحوال ... ولم يوزع الشعراء اليونانيون بيتاً واحداً من الشعر على أكثر من ممثل واحد كما يصنع شعراؤنا اليوم ومنذ عصر شاكسبير ... ومن الظريف جداً أن مترجمى الدرامات اليونانية القديمة من الانجليز والألمان والفرنسيين قد حافظوا على هذا التقليد حينما نقلوا تلك الدرامات إلى لغاتهم شعراً

وقبل أن نختم هذا الفصل نرى ألا يفوتنا أن نشير إلى حرية الرأى الكاملة عند هذا الشعب الأثينى الراقى العظيم ... تلك الحرية العجيبة غير المحدودة — إلا ما سلفت الإشارة إليه فى تناول بعض المشكلات السياسية — التى كان ينعم بها المؤلف والخطيب والمحاور وكل فرد من أفراد ذلك المجتمع الأثينى المهذب

لقد نشأت الدرامة اليونانية نشأة دينية بحتة ... لكن

(١) فرادة ملتيوس

(١) سنضع بين يدى القارىء صوراً من هذا الأله العجيب للشاعر أرسطوفان . وكذلك سنعرض مرة أخرى لنظرية نشوء الملهاة عند الكلام عنه .